

عروبة المواردية

البيير داغر*

أكثر الكتابات تأثيراً في إدراك المواردية لأنفسهم، تلك التي كتبها مثقفون مسيحيون وموارنية منذ القرن التاسع عشر، بدءاً بالمطران نقولا حداد، مروراً ببولس نجيم، وآخرون كثيرون. لكن نقطة الإنطلاق في التاريخ للمواردية، نجدها عند مؤرخين هما جبرائيل بن القلاعي في القرن الخامس عشر، والبطرك الدويهي في القرن السابع عشر. تظهر هذه الكتابات أن ما فعله من حازوا القدرة على الكتابة، هو أنهم كانوا يخترعون تاريخاً لطاقتهم يحشرونها فيه، وهو تاريخ ينشئ هوية متوهمة تؤثر في مسلكية الناس وخياراتهم.

درس ابن القلاعي في إيطاليا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر. أما الدويهي، فهو أحد تلامذة مدرسة روما التي أنشأتها البابوية لتعليم رجال الدين المواردية، ابتداءً من القرن السادس عشر. وإذا كان البطرك الدويهي أخذاً بتجربته الخاصة نأى عن طرح ابن القلاعي في وضعه الطائفة في مواجهة الإسلام والمسلمين، فإنه بدوره أنشأ تاريخاً لها من خلال التركيز على تجربة المرده، الذين استخدمهم البيزنطيون لمناوشة الدولة الأموية على حدودها الشمالية، جاعلاً المواردية استمراراً لهم (الصلبيبي: 114-118). وكان البيزنطيون قد سرحوا هؤلاء بعد تفاهمهم مع الأمويين، وجعلوهم يخفون في أنحاء الإمبراطورية. أما ما كتبه الدويهي بشأنهم فبات يمكن استثماره لفرز المواردية عن محيطهم، من خلال إنشاء أصول لهم غير الأصول العربية.

لكن الحقيقة التاريخية هي أن المواردية من

الدويهي إلى قرية ساروم، محدداً موقعها قرب انطاكية لجهة السويدية على البحر، وتبعه الكل في ذلك دون تمحيص أو تدقيق. ويذكر المؤرخان كمال الصليبي وفرج الله ديب صالح بأن موقع وادي ساروم هو في اليمن شمال صنعاء. وقد أوجد البطرك الدويهي نسبا ليوحنا مارون، يجعل منه فرنسياً، وابن أخت ملك فرنسا آنذاك. وقد فند الصليبي أخطاء البطرك الدويهي، إن لجهة مكان ولادة يوحنا مارون، أو لجهة نسبه. وقد أشار إلى أن الأسرة الكارولنجية التي نسب الدويهي إليها والدة يوحنا مارون، لم تنوجد كاسرة مملكة إلا بعد قرن على الأقل من ذلك التاريخ (الصليبي: 115). ولعل البطرك الدويهي افترض أن موقعه كرئيس للمواردية له صلاحيات زمنية، كان يبيح له أن يحرف الحقيقة.

تحمل المؤرخ الكبير الصليبي مشقة لاستخلاص شيء ذي قيمة عن تجربة المواردية في العهدين الصليبي والمملوكي من كمّ المراجع الرديء والناذر. لا يمكن فهم ما عده الصليبي استقبالا حاراً للصلبيبين من قبل الأهالي في عرقة بعكار، إلا إذا أخذنا في الاعتبار أن هؤلاء المواردية أنفسهم هم من كان البيزنطيون قد هجروهم من أماكن سكنهم في سوريا قبل وقت قصير. لا تفصل سوى سنوات معدودة بين تاريخ انتهاء الوجود البيزنطي في شمال سوريا و قدوم الصليبيين عام 1099. ويرى البعض أن عام 1180م، هو عام مؤسس، لأن أساقفة المواردية التقوا بطرك أنطاكية اللاتيني في القدس التي كان يحكمها الصليبيون، وطلبوا أن تقوم علاقة ارتباط وتعاون بينهم وبين بابا روما (الصليبي: 131). ولقد كانت العلاقة مع الصليبيين سبب حرب أهلية في صفوف المواردية، وكانت تلك الحقبة الوحيدة التي شهدت وجود بطريركين على رأس الطائفة، أحدهما نصبه الصليبيون المتمركزون في طرابلس.

وأما الحقبة المملوكية، فهي الأكثر ظلاماً في تاريخ المنطقة. ولا يمكن أن ننسى الانهيار الديموغرافي الفظيع الذي عرفه الهلال الخصيب كله خلال تلك الحقبة، حيث هبط عدد السكان إلى مستوى 1,2 مليون شخص في عام 1343م، بعد أن كان يساوي 4 ملايين في عام 900 م، نصفهم من المسيحيين (كرباج وفارغ: 33). وهي الحقبة التي هيبت خلالها نسبة المسيحيين إلى عموم السكان إلى درجة لم يجد المماليك معها حاجة للتفتيش عنهم لإدخالهم عنوة إلى الإسلام. كذلك فإنها الحقبة التي نشأت خلالها بداية علاقة فعلية بين المواردية وروما، وذلك بمبادرة من بطرك المواردية وبعد توحيد سدة البابوية وعقب انتهاء مؤتمر فلورنسا وبعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك في عام 1453. والحقبة اللاحقة حتى وقتنا الحاضر هي حقبة حضور البابوية في الأمور الدينية الخاصة بالطائفة وجهازها الديني. لكن هذا الحضور كان في نهاية المطاف ذا أهمية محدودة في ما يخص الخيارات السياسية التي أخذت بها هذه المجموعة البشرية.

أما الخيارات السياسية هذه، فقد حكمتها العلاقة مع فرنسا منذ القرن التاسع عشر، ودور الإرساليات الأجنبية، ودور المثقفين المواردية في ابتداء هوية بمواصفات خاصة لأبناء طائفتهم. كرت منذ القرن التاسع عشر سبحة الكتاب والمؤرخين الذين جعلوا مهمهم ربط المواردية بفرنسا، حتى لجهة النسب. بلغت الرغبة في التماثل مع الغرب عند البعض آنذاك درجة اختراع هوية مشتركة معه. واستمر مثقفو هذه

ربط جبك لبنان
بفرنسا وسوقها كاقصاد
كولونيالي ينتج مادة أولية
وحيدة للصناعة فيها
على مدى 75 عاماً

القبائل العربية الأكثر تأخرًا قبل الفتح الإسلامي في ترك الجزيرة العربية. ولم يكن للمسلمين أي دور في هجرة المواردية الأولى من اليمن، أي نجران، بحسب المؤرخ كمال الصليبي، أو صعدة بحسب المؤرخ فرج الله صالح ديب (ديب: 74)، إلى سوريا، لأنها سبقت الإسلام بنحو نصف قرن. فلقد جاءت هجرتهم أيام الإمبراطور موريس بعد عام 575 م. كذلك لم يؤد المسلمون دوراً في هجرتهم الثانية من سوريا إلى لبنان التي بدأت عام 694 م. في الحالة الأولى، كانت دولة اليهود في اليمن سبب تهجيرهم. وفي الحالة الثانية، كان البيزنطيون هم السبب. رأى البيزنطيون بعد المجمع المسكوني السادس في عام 680 م أن الأخذ بعقيدة المشيئة الواحدة (monothélisme) بدعة، فدمروا أحد أهم أديرة المواردية في جبل الزاوية في سوريا، وقتلوا خمسمئة من رهبانهم في عام 694 م. أدى ذلك إلى اتخاذ كبيرهم يوحنا مارون السارومي القرار بالهجرة إلى لبنان. وابتنى هذا الأخير ديراً لطائفته في كفرحي في البترون، لجأ إليه. وكان من نتائج عودة البيزنطيين إلى شمال سوريا، بعد نحو ثلاثة قرون ونصف قرن من نشوء الدولة العربية، أي خلال حقبة الإباطرة المقدونيين، لفترة قاربت مئة عام (969-1071)، الهجرة النهائية للمواردية من مناطقهم التي باتت تحت سيطرة هؤلاء.

ثمة شبه إجماع بين من كتبوا في هذا الشأن، على أن يوحنا مارون كان الرئيس الروحي والزمني الأهم للمواردية. وتفصل هذا الأخير عن مار مارون الناسك الذي سُميت الطائفة باسمه لا أقل من 270 عاماً. وقد توفي هذا الأخير في عام 410 م. وعلى كل حال، فإن أهمية مار مارون ليست في اتباع مريدية لاحقاً مذهب المشيئة الواحدة، ولكن في أنه انتمى هو نفسه إلى كوكبة نساك سوريا آنذاك، الذين ذهبوا إلى الحد الأقصى في تجسيد فكرة القبول الطوعي بالتضحية في المسيحية. وكان أشهرهم مار سمعان العمودي. ومنهم أخذت الكنائس الأخرى التجربة النسكية. وفي وقت متأخر، أي في القرن السادس عشر، استعاد الراهب إيليا من موروم في روسيا تجربة الجلوس على عمود طيلة 30 عاماً كفعل تضحية (كارير دونكوس: 56).

أما يوحنا مارون السارومي، فقد نسبه البطرك

حرب على النيل

وائل عبد الفتاح

«ها نحارب»، هذه نغمة مسموعة في الحكومة المصرية هذه الأيام. نغمة موجهة فعلياً ضد المتظاهرين الذين طالب نواب الحزب الوطني الحاكم وزير الداخلية باستخدام الرصاص الحي لحماية البلد من «مؤامرتهم». ومصر «ها تحارب» أيضاً على جبهة النيل وفقاً لتهديد خفي أرسله وزراء مصريون أمس، بعد الفشل الكبير في شرم الشيخ أخيراً. الحرب مشتتة فعلاً ضد المتظاهرين. لكنها بالون اختبار خائب في مواجهة «مؤامرة» اختطاف ما تعدّه الدولة المصرية «حقاً تاريخياً» في مياه النيل.

الدولة في مصر فاعلة في حربها الداخلية على خصوم النظام. لكنها ليست كذلك في حروبها الخارجية. وها هي تخسر أخذ «الخطوط الحمراء» لما تسميه الدولة نفسها «الأمن القومي المصري». وإذا سارت الخسارة في طريقها الحالي فإن النظام الذي يفخر بالحكمة التي أبعدته عن الحرب مع إسرائيل أو التورط في أي نقطة ساخنة، سيجر البلاد إلى حرب دفاعاً عن حصة المياه، وإلا فإنه سيواجه «معاة مائية».

النظام المشغول بالحرب على المتظاهرين يدفع ثمن الغياب عن أفريقيا، ولم يكن مفاجأة لأحد قرار وزراء دول حوض النيل السبعة في شرم الشيخ: إعادة توزيع حصص المياه. إنها مؤامرة إسرائيلية يقول ذلك النظام ومعارضوه في الوقت نفسه. لكنها مؤامرة شبه معلنة ولم تبدأ مع طلب مصر زيادة حصتها 11 مليون متر مكعب وصدمتها بالرد القاسي من دول المنبع: نريد إعادة توزيع الحصص لأنها جرت وفق اتفاقية لم تضع فيها بريطانيا مصالح مستعمراتها.

هكذا أعلنت الدول، التي اجتمعت في كينشاسا (أيار 2009) والاسكندرية (تموز 2009)، ما يشبه الانشقاق بين «المنبع» و«المصب» للمرة الأولى في التاريخ الحديث. مصر تعاملت بمنطق الحق التاريخي لأن النيل هو مصدر الـ95 في المئة من احتياجاتها المائية، بينما لا يمثل سوى 1 في المئة إلى 3 في المئة من احتياجات دول المنبع، وخصوصاً إثيوبيا وكينيا وأوغندا.

واعتمدت القاهرة على اتفاقية وُقعت عام 1929، برعاية «المستعمر» البريطاني، ومُنحت فيها مصر حصة (55 مليون متر مكعب) بالاتفاق مع السودان (حصته 15 مليون متر مكعب). لكنها الآن تحتاج إلى «حرب» للحفاظ على الحصة القديمة لا زيادتها.

رفضت دول المنبع اقتراحات مصر والسودان (المصب)، وهذا يعني ببساطة أن اتفاقية جديدة ستوقع بناءً على خريطة مصالح لا تشارك فيها مصر إلا بوجود «تاريخي» تحقق في زمن مصر الناصرية، حينما كانت أفريقيا دائرة من دوائر ثلاث (إلى جانب العالم العربي والعالم الإسلامي) وذراع مصر الطويلة أديرت عبر مشاريع شركة النصر للاستيراد والتصدير، الشهيرة بدورها في تعمير أفريقيا ما بعد الاستقلال.

مصر انسحبت من أفريقيا، لكنه انسحاب عشوائي احتلته إسرائيل وفق خطة مدروسة (اسمها شد الأطراف) و5 آلاف خبير في مجال تدريب الجيوش وإنشاء المزارع وتصدير الزهور. وهكذا نجحت الخطة في تغيير اتجاه السهم الأفريقي وبرأس إثيوبي، لتحبس مصر داخل حدودها.

الخطة لم تعد سرية منذ 1995 تقريباً، وخصوصاً بعد فتور العلاقات بين مصر وأفريقيا في أعقاب محاولة اغتيال الرئيس مبارك في أديس بابا. لكن النظام مشغول بالحرب الداخلية. وبناء جيش الأمن المركزي في مواجهة المتظاهرين، ثم يأتي ويبيكي من المؤامرة، وتعلن حكومته في الصحف تخصيص ما يقارب الـ27 مليون دولار للتعاون مع دول حوض النيل، بينما تصرف إسرائيل ودول أخرى أصعاف هذه الميزانيات لتربط أفريقيا كلها بشبكة المصالح.

أفريقيا خرجت من أولويات السياسة المصرية، وبعد الدكتور بطرس غالي، لا يوجد من يهتم بالملف في الإدارة المصرية، لتصبح القارة ودولها المحورية ملعباً للصراع بين إيران وإسرائيل، بينما مصر غارقة في مرض «الحق التاريخي» الذي تطالب به الجميع من دون لفتة واحدة لتنمية هذا التاريخ.

مصر غائبة عن معاركها الحساسة ومشغولة بمعارك توزيع الغنائم بعد تدجين المعارضة ونحرها في حرب الـ30 سنة الأخيرة.

الخطر حقيقي. لن يُحل بميلودراما توجّهها البروباغندا الرسمية في مصر لتشكو من إسرائيل المتآمرة، وكانّ المؤامرة قدر لا يمكن مواجهته إلا بالدموع والآهات وتسوّل التعاطف.

هي حرب على النيل، لكنّ النظام يوجّه مدافعه عكس الاتجاه الصحيح. وهذه هي الهزيمة السابقة الإعداد.

الزخار

تأسست عام 1953

تصدرت شركة «أخبار بيروت»

مدير التحرير خالد صاغية ■ سكرتير التحرير حسنة الزين ■ مجلس التحرير عربيات دوليات إيلي شلهوب، نقاشة بيار أبي صعب، مجتمعت ضحك شمس، رياضة علي صفا، عبد عمر نشابة، اقتصاد محمد زبيب، المدير الفني اميل منعم

رئيس التحرير المؤسس جوزف سماحة (2007-2006) مستشار مجلس التحرير أنسي الحاج

الإعلانات Tree Ad 03 / 252224_01 / 611115 شركة اللواتك 03 / 828381_01 / 666314_15

تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب. 113/5963 ■ www.al-akhbar.com